غـــروب

للأستاذ شكري فيصل

« منذ عام خطفت أنظاري التي كنت ألقي بها خلسة ، وعشت بين أحزاني وأصدقائي ... هذه تعزوني وأولئك يعزونني ... واليوم أفيق على نحيب الذكرى ولوعة الحنين ، وتغلغل على الشجون والأشياء ... فإلى الروح التي تنوح في أعلى عليين ... إلى روح خالي الذي علمني وأدبني ... هذه النفحات »

— ١ —

حين جزت ضفة النيل ... من هذه الخضرة الخضراء والبساتين المزهرة إلى الضفة الأخرى التي تستريح على ذراعها الرمال الصفراء وتحتفق على جنباتها الأمواج الزرق في « رأس البر » كنت في مثل ذهول المأخوذ وغيبوبة المنتشي ... كانت الساعة قرابة السادسة ، والشمس تميل عن سمائها التي عاشت فيها ، وتنحدر في شيء من البطء وفي كثير من الأسى نحو الأفق البعيد الذي يبسط لها جناحان من ضباب ونور .

ولم يكن في وسع الإنسان ، إذ يتجرد عن كل ما حوله من حركة الناس ، أن يدرك أكانت تلك ساعة من ساعات الصباح الفتي أو لحظة من لحظات المساء المتداعي ... فقد كانت هذه الأستار العريضة التي تلقيها السماء هنا وهناك علامة من علامات الظلمة ، وكانت الشعاعات الرضية التي تند من الشمس شارة من شارات النور ... كان هناك هذا المزيج الذي يشي بعضه بعضا من الليل والنهار ، وهذا الخليط المتشابك من الأخلاط والضباب ، وكان في ذلك كله تناسق أصيل محبب .

— ٢ —

وألقيت أقدامي في الطريق إلى البحر ... وأدرت ظهري إلى الشارع الذي يطفح بالناس على ضفة النيل ، ولم أحاول أن أستجيب إلى شيء مما حولي من جلبة الأشياء وحياة الأحياء ، وخلفت من ورائي في نظرة عابرة كل هذه الحركة التي يتحرك بها هذا الشارع الأنيق وهذه الزينة التي يزدان بها ... ولم يكن من بأس أن أخالف من عادة الناس ، هنا في رأس البر ، حين يقسمون وقتهم قسمة متساوية بين البحر والنهر ... فإذا كان الضحى لجأوا إلى البحر ، وأخلد بعضهم إلى رماله وانتحى بعضهم بمسارح أمواجه ... وإذا كان الأصيل لجأوا إلى النهر فانسابوا على شاطئه ، عين إلى صفحته الهادئة ، وعين إلى الصفحات الأسيلة التي لوحتها الشمس في الصباح وخفقتها الأصباغ في الأصيل

وجزت طريقاً من هذه الطرق المتعارضة وحدي ... كنت أشبه بالضال أو كذلك خيل إلي ... فقد كانت الأنظار التي تمر بي كأنما تتحدث إلي ، بعضها يتحدث مشفقاً علي وبعضها هازئاً مني ... ولكني كنت أنا مشفقاً عليها دائماً رائياً لها أبداً. وإلا فكيف يخلي هؤلاء الناس بينهم وبين هذه اللحظات التي لا تنسى من عمر الشمس ... كيف يبيحون أن يجلسوا إليها أكثر النهار يستمدون منها القوة ويستجدون العافية ويتقلبون في مهاد من أشعتها الحلوة ، حتى إذا غلبها على أمرها الفلك الدوار وأخذت تودع هذا الشاطئ انصرفوا عنها ... لم يكن في وداعها إلا ثلاثة : شاعر حالم ، ومحب مستخف ، وحارس كهل من حراس الشاطئ ينتظر موعد الصلاة ؟ !

ولكن ما ينفع العجب ؟.. وهل هذا إلا صورة من وفاء الناس للناس ، يتجاوز الأحياء إلى الأشياء .

... وانتهيت إلى البحر من أقرب طرقه — وكل الطرق إليه قريب — فأنا مع هذا القرص المتوهج الذي يبقى من الشمس على ميعاد ، في كل يوم ، لا أخلفه إلا مكرهاً على إخلافه ، ولا أنصرف عنه إلا أن يحول بيني وبينه ما لا قبل لي بدفعه ، فإن فاتني أن أراه فشت معه أتخيله ، حتى تطويه لفة الأفق في لحن سماوي من الألوان ، حزين .

— ٣ —

ورأيتني أشهد الشمس الهاوية في استغراق ، وغشي عيني دمع ثر ، كأنما استعار من الموج تدفقه ... ولم أحس لهذه الصورة التي أراها كل يوم مثل الذي أحسسته لها اليوم ... كنت أحس بعض هذا الاستغراق غير أني لم أكن أمثل ذاتي ... كان حاجز رقيق أو سفيق يحول بيني وبين الفناء ويبقي على شيئاً من كياني ، ولكني في هذه اللحظات لم أعرف أين أنا ومن أنا فقد اشتملني جناح رفيق رقيق ، وطار بي في هذا الأفق الموغل المتراءى